كريمة سالمي
جامعة مولود معمري -تيزي وزو-

الإنجاز النّصي: المكوّن التداوليّ والقصدية

ملخص:

يمكن إعادة طرح إشكاليات النص في ضوء ما استجدّ في البحث اللغوي- في التوجهات المعرفية والمنهجية- لاسيما على مستوى الدرس التداوليّ الذي يُسهم بشكل قويّ في رسم آفاقه الجديدة.

تقترح المقاربة النصية تحليل بنية النص ورصد الآليات التي تحقق انسجامه، وإذ نرى أهمية بالغة في تناول نصية النص نعتقد أنّه من الأجدى التساؤل عن الوجه الآخر الذي يتعلّق بالمكوّن التداوليّ للنصّ المُنجز. وننطلق في ذلك من اعتباره وحدة تواصلية تتشكّل وفق معطيات سياق غير لغوي، وتقوم على نشاط لغوي من شأنه تثبيت اللغة كتأدية وكفعل في اتجاه الآخر أو المتلقي، الأمر الذي يحيلنا على الكفاءة التداولية التي يتمّ تفعيلها من قِبل صاحب النصّ يتجاوز فيها معرفته النظرية بأدوات اللغة ونحوها.

تتصل دراسة النص من حيث المكوّن التداوليّ بالبحث في علاقة الدلالات اللغوية بمستعمليها ومؤوّليها في آن واحد، فيكون التساؤل عن المقاصد التي يحاول المتكلّم تمريرها، وهي المعاني المشكّلة لمضمون النصّ، ولا يهتدي إليها المتلقي إلاّ بعد جهد التأويل الذي يقتضي منه إعمال سياق إنتاجه، ولا يتعلّق هذا المضمون بما تحمله دلالات النصّ الحرفية ولا يمكن أن يتراءى للوهلة الأولى، ومنه تلك المسافة بين المعنى والمقصد. إنّ الإنجاز النصّي، أي إنجاز النصّ كوحدة كلية، بناء غير منته بمجرّد تشكّله في هيئة نصية، وإنّ حقيقة مضمونه تتجلى في قصديته ممّا يستدعي البحث في ما وراء النصّ.

Résumé

Les problématiques liées au texte pourraient être relancées suivant les nouvelles réflexions dans le domaine de la recherche linguistique tant au niveau conceptuel que méthodologique. D'autant plus que les études pragmatiques contribuent considérablement à déterminer de nouvelles perspectives à l'analyse textuelle.

L'approche textuelle propose une analyse de la structure du texte en définissant les mécanismes qui sous-tendent sa cohérence et de ce fait, elle revêt toute son importance dans l'étude de la textualité. Ceci étant, nous considérons qu'il serait plus pertinent encore d'y intégrer un autre aspect fondamental, à savoir le composant pragmatique du texte accompli. Le texte est une unité communicative produite dans un contexte donné et vu sous cet angle, il est défini comme la résultante d'une activité langagière déterminant la nature même du langage en tant qu'action envers l'Autre, et cela, en référence à la compétence pragmatique mise en œuvre par le locuteur et qui dépasse la seule maîtrise des règles grammaticales.

L'étude du texte en introduisant le composant pragmatique s'assigne l'objectif de rendre compte des significations linguistiques, tant au niveau de leurs utilisation que de leur interprétation. Constituant le contenu du texte, l'interlocuteur ne saurait leur attribuer une valeur, en rapport avec les intentions du locuteur, sans un effort d'interprétation conséquent qui doit s'appuyer sur une certaine connaissance du contexte dans lequel le texte est produit. Ainsi, la construction du texte ne peut être considérée comme accomplissement du seul fait que sa structure purement linguistique est établie et son contenu, dans sa valeur communicative, n'est déterminé que par son intentionnalité.

Abstract

Problematic relating to the text could be asked in according to the innovations in linguistic research – from the side of the conceptual and methodological trends- especially in the pragmatic field where new perspectives are defined.

The textual approach proposes a textual structure analysis to explain the mechanism of its coherence. From this viewing angle, the study of the textuality is essential but, in the same time, it would be more pertinent to consider another aspect inherent to the pragmatic component of the text. Then, the text is taken as a communicative unit formed in an extralinguistic situation and presupposes a linguistic activity which characterizes the language as a performance activated by the speakers and it's not only based on the grammatical knowledge.

The text analysis introducing the pragmatic component has to focus on linguistic significations in its connection with both producers and interpreters. Consequently, the essential question must be focused on the speaker's thoughts or intentions. The interlocutor (receiver) couldn't assimilate them without an effort of interpretation which requires some knowledge about the context. There is a real gap between the apparent meanings and the speaker's intentions. At least, the textual construction is not achieved in stripped that the structure of the text is grammatically correct because the reality of its meaning must refer to its intentionality.

تحـدّد ماهيــة اللغــة في المنظــور التــداوليّ مــن حيــث اســتعمالها الفعــليّ في المواقــف الحقيقيــة للتواصــل، ويُعتمــد في دراســتها تحليــل النصوص الكلاميــة في علاقتها بظـروف إنتاجهـا، وفي ذلـك طبعـا تجاوز لوصــف الصيــغ اللغويــة وصفــا شــكليّا إلى تحليــل آليــات اشــتغالها في الأداء.

يُمكــن أن نلمــس في الموقــف التواصــلي مجمــوع العنــاصر المقامية التي تشــكّل وفقهــا الــكلام (أو النــص)، وقياســا عليهــا يســهُل علينــا الاهتداء إلى المعــاني التــي يتضمّنهــا، وتبــدو ضرورة إعــمال هــذه العنــاصر بالخصــوص عنــد الوقــوف عــلى تلــك المعــاني التــي لا تُنقــل بشــكل صريــح، حيــث لا تحملهــا علامــات لغويــة مُعلنــة، ومــع ذلــك يَعيهــا المتكلّــم ويدركهــا المتلقــي، نحــو القــول: - أ يُمكنُــكَ غلــقُ البــاب ؟

فهــذه الجملــة وإنْ جــاءت بصيغــة اســتفهامية فــإنّ دلالتهــا قــد تتعــدى حــدّ الســؤال إلى طلــب غلــق البــاب، ومعرفــة ســياق قولهــا كفيلــة بتحديــد هــذه الدلالــة.

إنّ المعنــى المقصــود هــو محــور اهتــمام التداوليــة، تتناولــه في علاقتــه بالملقــي والمتلقــي، وذلــك عــلى أســاس أنّــه لا يتعلّــق بمنتِــج النّــص وحســب، بــل ينتهــي تشــكّله لــدى المــؤوّل، ولا يكــون الــكلام دائمًــا صريحا وذا قصــد مبــاشر، إذ يقتــضي الأمــر مــن مُتلقيــه، في بعــض الوضعيــات التواصليــة، البحــث عــن الجانــب الخفــيّ منــه، وهــو مــا يحملــه عــلى التفكــير فيــما هــو غــير مُــصرّح بــه بالاعتــماد عــلى التأويــل، ولا يُمكنــه الاكتفــاء بمــا تحملــه النصــوص مــن دلالات حرفيــة كــما تــتراءى لأوّل

وهلة على مستوى البنية السطحية، وهذا ما يؤكّد العلاقة القائمة بين القصدية ومضمون النّص.

1- النّص المُنجَز في بعده التداوليّ

تُفضي مقاربة النص من حيث بناؤه إلى تحديد آلياته ومستوياته وملامسة الكفاءة اللغوية المجسّدة فيه، وذلك انطلاقا من أنّ الكلام كتأدية فردية يخضع لتشكيل نصيّ بكيفية معينة، و« الكلام أعم من النص؛ باعتبار أن النص هو الطريقة (الخاصة) الملموسة التي ينصص بها الكلام، أو هو الطريقة الخاصة التي بها يَنبني الكلام ويُبنى. وهذا يقتضي أن النص ينطوي على بنية التكلم (الخطابي) ونظامه في موقف ما من مقامات التكلم، وهذا يعني أن النص، وبخاصة النص الأدبي، ينطوي على بنيتين متداخلتين ومتلازمتين؛ بنية التكلم النصي الداخلي الخاص، وبنية التكلم الخطابي الخارجي العام، ومن ثم، فهو ينطوي على بنية الكلام (الخطاب) العام الذي من شأنه أن يعمم الفرد المتكلِّم، وعلى بنية الكلام الخاص الذي من شأنه أن يفردن الفرد المتكلم »( )، وتتصل هذه الفردنة بمظاهر ممارسة الفرد للغة وبملكته في إنتاج النصوص في إطار سياق تواصلي يتفاعل مع معطياته بوجهة نظره الخاصة، أي وفق تمثلاته العقلية والاجتماعية.

إنّ النّص من حيث هو نسيج من العناصر اللغوية وحدة متماسكة شكلا ومضمونا، تتحقّق فيه النصية بوساطة روابط لغوية ومعنوية، وتحكمها علاقات جدّ معقّدة، ويُعتبر من هذه الناحية كيانا لغويّا بالدرجة الأولى. و في حديثه عمّا يعتبره نصيّة يقول طه عبد الرحمن: « كل نصّ هو بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات »( )، فالنص تنظيم ما بعد الجملة يستدعي مجهود البناء، ومنه التدرّج من مستوى الجمل والفقرات إلى مستوى الوحدة الكلية التّامة الإنجاز .

هـذا، وإذ نـرى أهميـة بالغـة في تنـاول نصيـة النّـص وبنيتـه تبـدو لنـا، مـن زاويـة أخـرى، أهميـة التسـاؤل عـن الوجـه الآخـر لهـذه البنيـة، ويتعلـق الأمـر بالمكـوّن التـداوليّ للنـص المُنجـز مـن حيـث كونـه وحـدة تواصليـة تتشـكل وفـق معطيـات سـياق غـير لغـوي، وتتجسّـد في نشـاط لغـوي مـن شـأنه تثبيـت اللغـة كتأديـة وكفعـل في اتجـاه الآخـر أو المتلقـي، « وإنّ النظـر إلى اللغـة مـن زاويـة تداوليـة يسـتدعي إعـادة تعريفهـا بـإدراج المكـوّن التـداوليّ إلى جانـب المكـوّنـين الـدلالي والتركيبـي، وذلـك اسـتنادا إلى التقسـيم الثـلاثي الـذي أقـرّه، ش.موريس عـام (1938)، وحـدّد بـه ثلاثـة مجـالات لتنـاول العلامـة:

- المجال التركيبي الذي يُعنى فيه بعلاقة الأدلة بأدلة أخرى،

- المجال الدلالي، ويرتبط بعلاقة هذه الأدلة بالواقع،

- المجـال التـداوليّ الـذي يخـصّ علاقـة العلامـات بمسـتعمليها وتأثيراتهـا.

وحينـما يُعتـدّ بالعوامـل التداوليـة في الظاهـرة اللغويـة، فهـذا يعنـي اعتـماد المكـوِّن الـذي ينـدرج في مسـار تأويـل الملفوظـات في سـياقاتِها».

وتتصـل مقاربـة النـص تداوليّـا بالبحـث في علاقـة العلامـات اللغويـة المُشـكِّلة لـه بمسـتعمليها ومؤوّليهـا في آن واحـد، ولا يُهتـمّ في ذلـك بتحديـد الـدلالات اللغويـة، بـل يكـون التسـاؤل عـن المقاصـد التـي يحـاول صاحـب النـص تمريرَهـا، وهـي المعـاني المُكوِّنـة لمضمـون نصّـه، ولا يمكـن للمتلقّـي الكشـف عنهـا إلاّ بعـد جهـد التأويـل الـذي يقتـضي منـه إعـمال سـياق إنتاجـه.

إنّ الإنجـاز النّـصيّ نشـاط تواصـلي في جوهـره، وذو طبيعـة اجتماعيـة في بُعديْـه: التبليغـي الاتصـالي، وذلـك عـلى أسـاس الحاجـة إلى إيصـال المعـاني إلى الآخـر؛ والتفاعـلي الاجتماعـي، ويتجـلى في الأدوار الاجتماعيـة التـي تـؤدى مـن خلالـه.

ويقوم هذا الإنجاز على الكفاءة التداولية التي يتمّ تفعيلها من قِبل صاحب النص، وتحكمُها مجموعة من الملكات: « الملكة اللغوية، وهي القدرة على استعمال اللغة الطبيعية لإنتاج وتأويل بُنى متنوعة ومعقدة؛ الملكة المنطقية، وتتصل بإمكانية استنباط معارف جديدة انطلاقا من رصيد معرفيّ معين؛ الملكة المعرفية التي تسمح باستغلال مجموع المعارف المخزونة في الذهن عند الحاجة إلى تأويل ما نتلقاه من كلام؛ الملكة الإدراكية، وأصلها قدرة على استيعاب مكوِّنات المحيط، يُوظّفها الفرد في استنتاج معارف جديدة يعتمدها في إنتاج الكلام وتأويله؛ والملكة الاجتماعية التي تتجسّد في مراعاة مُتغيّرات المواقف التبليغية في تشكيل الكلام المناسب لتحقيق الأهداف التواصلية »( )، وما يُبيِّنه كلّ هذا هو أنّ ما يتمُّ تكريسه في النص المنجز يتجاوز بكثير المعرفة بأدوات اللغة ونحوِها.

إنّ النص في تنظيم مادته اللغوية صادر عن متكلم واع بما يريد تحقيقه من مقاصد كفرد ذي تكوين نفسي وهويّة اجتماعية معينة، يتحرك اجتماعيا وينتج أفكارا وفق معطيات واقعه وقدرته على استيعابها وتوظيفها؛ وإنّ مصدر المعاني التي يعبِّر عنها هو الواقع الخارجي (المادي والمعنوي) الذي يتحسّسه و يتأثر به، وما ينقله في حديثه هو وجهة نظره إلى هذا الواقع الذي لا يمتلك أحد حقيقته كاملة، ومنه حاجة الفرد إلى جسّ النبض لدى الآخرين للتأكد من صحة ما يعتقد أنه حقيقة. ويمكن أن نشير في هذا الموضوع إلى ما اعتبره طه عبد الرحمن من شروط التداول اللغوي، « ويتعلق الأمر بالاجتماعية، الإقناعية والاعتقادية. يتّضح شرط الاجتماعية في حاجة المتكلّم إلى إطلاع من يحاوره على اعتقاداته ومعارفه مطالبا إيّاه مشاركته فيها، ومحاوِلا تجاوز الخلافات المحتملة معه وتقريب المفاهيم؛ وتقوم الإقناعية على تتبع طرق استدلالية متنوعة لحمل الآخرين على الاقتناع بأفكارنا وآرائنا، وقد تُعتمد إلى جانبها أساليب

«الإمتاع» تحقيقا لتأثير أكبر في اعتقاد من نحاوره وتوجيها لسلوكه؛ وترتبط الاعتقادية بما ينطلق منه المتكلّم من قناعة وتصوّر لقضايا يعرضها على غيره على أنّها اعتقادات صحيحة، كما يعتقد الانتقاد الذي قد يوجهُه إلى رأي الغير »( ).

ونجد في عملية الكلام تثبيتا لذلك الصدى الذي يتحقق لدى الأفراد في علاقتهم بالواقع، مع وجود حدّ أدنى من الاتفاق بينهم حول حقيقة الأشياء أو طريقة تمثّلها، وهو ما يسمح بإقامة تبادلات كلامية، فقد يشترك المتكلّمون في مجموعة من التمثّلات الاجتماعية، « وهي تتشكل كأنظمة تأويلية متحكمة في علاقتنا بالعالم وبالآخرين، توجِّه السلوكات وتنظِّم عمليات التواصل الاجتماعي »( ). اقترن مفهوم التواصل (العملية التواصلية) بقصد إيصال محتوى معيّن إلى طرف آخر قائم أو مفترض، « ويُحدّد كما يلي: مجموع الأفعال التي من خلالها نُفيد الآخرين عن قصد بأخبار عن فكرنا الشخصيّ (نشاطنا السيكولوجي الخاص)، وبصورة عكسية، فإنّها تفيدنا بما لدى الآخرين »( ). ويوحي المعنى المنقول عبر النّص إلى حقيقة أخرى تتعلّق بالألفاظ من حيث إنّها مجرّد رموز للمعاني، وعليه يحق لنا التساؤل: إلى أيّ مدى يُمكن للرمز اللغوي أن ينوب عن المعنى؟

ويطرح ذلك قضية أخرى تتعلّق برمزية العلامة اللغوية، وتبقى موضوعا يحتاج إلى بحث عميق ودقيق ليس مقالنا هذا مجالا له.

يستقيم النص كوحدة مستقلة باستيفاء المعنى الذي أُريد له، ولذلك يبدو واضحا عدم جدوى الوقوف في تحديد معانيه على الدلالة اللغوية التي تتضمّنها كلماتُه وجملُه، بمعنى أنّ ما وراء الإنجاز النصيّ مقاصد مُحدّدة نُريد تمريرَها، ومن حالات عدم حصول الفهم والإفهام يمكن ذكر على سبيل المثال حالتين:

« - قد يتطابق المعنى المؤوّل من لدن المرسل إليه مع دلالة الوضع، ولا يتطابق مع المعنى المقصود، وهذا عندما لا يكون المعنى المقصود في الخطاب الحرفيّ، ولعدم إدراك المرسل إليه لذلك، واعتقاده أنّ المرسل يقصد الدلالة الحرفية؛

- قد لا يتطابق القصد المُراد مع دلالة الوضع اللغوي، ولا مع المعنى المؤَوَّل، ويحدث هذا عندما يقصد المرسِل المعنى غير الحرفيّ. »( ).

ونجد في مثل هذه الحالات ما قد يُفسِّر تلك المسافة بين المعنى والمقصد، فأين معنى النص من المعنى المقصود؟

ويتبيّن بذلك أنّ الإنجاز النصيّ، أي إنجاز النص كوحدة كليّة، بناء غير منتهٍ بمجرّد تشكّله في هيئة نصية، وأنّ حقيقة مضمونه تحيلنا بالضرورة على ما وراء النص في حدّ ذاته، أي على سياق إنتاجه، وهو ما يُعتدّ به في المقاربة التداولية التي تتجاوز تحليل مستوى المعنى الحرفي إلى المعنى المراد قوله، وهو لا يتصل بما يقوله المتكلم (الدلالة اللغوية) وإنّما بما يعنيه بقوله، وذلك باعتمادها على حيثيات العملية التواصلية، كما تنطلق كذلك من مبدأ تعدّد دلالات القول أو الخطاب بتعدّد السياقات، « فقد لا يكون ذا دلالة مستقرة تلازمه دوما. ولننظر في الخطاب التالي الذي يتخذ شكل سؤال يطرحه الأستاذ على تلميذه:

- أ تود أن تكتب الدرس؟

إذ يبدو، لأوّل وهلة، أنّ هذا السؤال مطروح لمعرفة رغبة الطالب في كتابة الدرس، أو استشارته؛ وذلك حسب ما يقتضيه المعنى المعجمي للمحمول (تودّ)، وبالرغم من بداهة ذلك، إلاّ أنّه قد يستعمل هذا السؤال للدلالة على مقاصد كثيرة منها دعوة الطالب إلى كتابة الدرس أو أمره بطريقة مؤدّبة... »( ).

هذا، وتوحي دلالات النص إلى ما يمكن أن يوجّه المتلقي إلى المعنى المقصود بعد أن تتموضع في سياق أشمل من المحيط اللغوي الذي ترد فيه، وهو ما يتصل بالظروف التي أملت على المتكلم مضمون نصِّه وبنيته، ومكّنته من إنجازه ليكون في مستوى نقل مقاصده، باعتبار أنّه (أي النّص) « ناتج الفعل الإنجازي للقول أو للفعل، أو هو بمثابة إنجاز لذلك البرنامج التواصلي، أو لنظام السلوك اللغوي القصدي، وغير اللغوي »( )، وعليه، يرتبط بقدرات منجزه (صاحب النّص) وغاياته التواصلية.

-2 الإنجاز النّصيّ فعل قصديّ

تعتبر القصدية صلب كلّ فعل تواصلي، يُضبط وفقها استعمال العلامات اللغوية في تشكيل نصّي، فلا يتكلّم الفرد ليختبر قدرته على تشكيل الجمل، وإنّما ليُوصل المعاني وفق مقاصده. ويُحدّد ج.ر سيرل John R. SEARLE القصدية في أنّها « الخاصية التي تسمح لمختلف الحالات والوقائع الذهنية بأن تحيل على موضوعات ووضعية الأشياء في العالم، تتعلّق بها أو تنطبق عليها... فإذا كان لديّ تخوّف ما فإنّه بالضرورة تخوّف من شيء ما أو من حدوث شيء ما؛ وإذا شعرتُ برغبة ما فإنّها بالضرورة رغبة في فعل شيء ما أو في أن يحدث شيء ما أو أن يتمّ تحقيقه؛ وإذا كان لديّ قصد معيّن فهو بالضرورة قصد فعل شيء ما... »( )، وتكون قصدية الفرد، على هذا النحو، في اتجاه الواقع الخارج عن النفس، ومصدرها علاقته بمعطيات هذا الواقع وكيفية استيعابه له.

أضحت القصدية من الظواهر النصيّة الجديرة بالاهتمام في تناول النصوص وفق التصوّر التداوليّ، ذلك أنّ « إنتاج النصّ هو باستمرار نشاط تفاعلي مرتبط بشريك، ويحدث دائمًا بالنسبة إلى شركاء الاتصال الذين يتصل بهم النشاط اللغوي لمُنتِج النصّ بشكل متباين »( )،

وإنّ مقاصد النصّ تمرّ عبر الصيغ اللغوية والمعاني النابعة من الذات المتكلّمة في اتجاه الذوات المتلقية، فهي بذلك موجّهة نحو الآخرين. ولا بأس أن نُذكّر بما قد يؤخذ على أنّه أمر بديهي، وهو أنّ « إنتاج النص هو نشاط قصدي دائما ينجزه متكلم ما وفق الشروط التي ينتج في ضوئها نص ما، ويحاول أن يفهم السامع من خلال المنطوق اللغوي »( ).

ترتبط الدلالات اللغوية المُعتمدة في إنتاج النص بمقاصد مُنتِجه التي تكون عابرة للنص إلى مفسّره، الذي يُمثّل أساسًا طرفًا في تجسيد تلك المقاصد، وذلك « أن قول «القائل» لا يُمكن أن يُفيد شيئًا إلاّ إذا قصد السائل الأمور الثلاثة الآتية:

- أن يدفع قوله إلى نهوض «المقول لَهُ» بالجواب.

- أن يَتعرّف «المقول لَه» على هذا القصد.

أن يكون انتهاض «المقول له» بالجواب مستندا إلى تعرّفه على قصد «القائل» »( )، ويكون ذلك ممكنا باعتماد ما هو مفترض وجوده كخلفيات مشتركة بين الشريكين: «القائل» و«المقول له»، تَشدُّهُما إلى فضاء معرفيّ واجتماعي واحد، وهو ما يعني أنّ المقصد ليس قضية المتكلم وحده كمنتِج للنص، بل تعني كذلك المتلقي الذي لا يتقيّد بالدلالات الحرفية للنص، وأنّ الإنجاز النصيّ لا تتحقق الغاية منه إلاّ بوصول المقاصد مثلما أراد صاحب النص أن تصل إلى المتلقي.

لا تتحقق غاية الفهم والإفهام في حالة عدم وضوح المقاصد، لذا « يُثير النّاس، عادة، في تبادلاتهم التخاطبيّة السؤال التالي: ماذا تقصد بخطابك؟ ماذا يعني كلامك؟. وتجنبا لهذا السؤال المفترض، يعمد طرفا الخطاب إلى تحديد المقاصد من الألفاظ والمفاهيم والعبارات

مسبقا، خصوصا عند سن القوانين أو الأنظمة، وكذلك في النقاشات والحجاج، وذلك لينطلقوا من قاعدة واحدة، فتكون مرجعا لهم عند الاختلاف. بل قد يستعملها أي منهما حجّة ضد الطرف الآخر، وذلك عند الاختلاف أو محاولة التملّص »( ) لأنه قد يصعب التأكد منها عند عدم مُطابقتها لدلالات الألفاظ المستعملة أو لمقتضى حال التخاطب، ويزداد حرص المتلقي على فهم هذه المقاصد في المواقف التي قد يتحمّل فيها عواقب أيّ سوء فهم.

وقد أثار ج.ر سيرل قضية فهم المعاني في الكلام غير المباشر، أي المقاصد التي تتوارى خلف صيغ جمل ذات دلالات مباشرة، وكيف يُمكن للمتلقي في حالة الكلام المجازي مثلا الانتقال من المعنى الحرفيّ للجمل إلى المعنى الذي يقصده المتكلّم، « وفي القول:

- جارتُكَ لفعى.

أو

- جارتُكَ أفعى.

يتجاوز المتلقي المعنى الحرفيّ للجملة، أي جارتُكَ من الزواحف، ليعتمدَ المعنى المجازي المرتبط بقصد القائل »( ).

وأشار ج.ر سيرل في هذا الإطار إلى المعاني غير المباشرة في حديثه عن العمليات التي يمرّ منها تأويل معاني النصّ وفق المقاصد المتضمنّة في الأفعال الكلامية(*) بالخصوص، والتي شكّلت موضوعا محوريّا في الدراسة التداولية، ويُمكن ملامسة فكرة ج.ر سيرل في المثال التالي:

« المتكلّم 1: لنذهب هذا المساء إلى السينما.

المتكلّم 2: عليّ أن أُحَضِّر امتحان الغد.

يتضمّن قول المتكلّم 1 اقتراحًا للذهاب إلى السينما؛ ويتضمّن قول المتكلم 2 ردًّا على هذا الاقتراح بالرفض، ونلاحظ أنّ هذا الردّ جاء بصيغة إثباتية، وذلك على خلاف ما قد نتوقعه كنفي، لكن مع ذلك يُفهم من قِبل المتكلّم 1 على أنّه رفض، وهو ما قصده فِعلاً المتكلّم 2. »( ).

ويَعود هذا، وفق تصوّر ج.ر سيرل، إلى مجموع العمليات الاستنتاجية الضرورية لتأويل معاني الأفعال الكلامية غير المباشرة، والتي تعتمد على ما يعتبره الخلفية المعرفية Arrière-plan de connaissance المُشكِّلة لسياق التبادل الكلامي.

تُعدّ المعاني غير المباشرة في عرض المقاصد من الظواهر التي تُجيز العمل التأويلي المنوط بالمتلقي، « ومن وجهة نظر اللسانيات التي تعتبر البعد التداوليّ في ظواهر التلفظ، فإنّ كل إنتاج كلامي هو إعلان واضح عن «قصد تواصليّ»، وإنّ فهم - تأويل ملفوظ معين هو التمكّن من مجموع الفرضيات القصدية التي تؤدي إلى التبادل الكلامي وتفسِّرهُ »( ). ويُبيِّن هذا أنّ إنتاج النصّ قائم على أساس تقدير لموقف المتلقي وتمكينه من تأويله، وذلك بإحالته من خلال بنيته اللغوية على المجال المعرفيّ الاجتماعي الذي أُنتج فيه، و« ينطلق المنتج بذلك من أن المتلقى يمكنه أن يتعرف إلى قصد المنتج عن طريق المنطوق وكذلك بالاشتمال على عوامل موقفية وسياقية ومصاحبة للنص »( )، وهي بمثابة معالم للتأويل كامنة في صلب النصّ كبنية تامة الإنجاز.

إنّ ما يربط منتج النصّ بمتلقيه، بالإضافة إلى ما ذكرناه، هو مجموع القواعد الاجتماعية المشتركة للدخول في علاقة مع الآخر، وتمثّل إطارا عاما لكلّ عملية تواصل، وإنّ العمل على تأويل النصّ يستند إلى افتراض احترام هذه القواعد، حيث « إنّ مجرّد الدخول

في التواصل الكلامي يقتضي احترام قواعد اللعبة، ولا يتمّ ذلك وفق عقد صريح، وإنّما وفق اتفاق ضمنيّ، مقترن بالنشاط الكلامي، ويتعلّق الأمر بمعرفة مُستوعَبة بشكل متبادل »( )، والنصّ من حيث هو أداء لغويّ يتشكَّل في الظروف الحقيقية للكلام ويحمل علامات ذلك التقيّد بقواعد اللعبة.

ونعتبِر، على أساس ذلك، أنّ النصّ المُنجز لا ينقطع تمامًا عن المجال غير اللغوي الذي تكوّن فيه، وأنّه يوجد في ماهيته ما يُوحي إلى ذلك، ونلاحظ أنّ عملية تلقِّيه توازيها الإحالة على ذلك العالم الخارج عنه، والتي بدونها يكون النصّ مجرّد بنية شكلية مُبهمة تطفو على سطحها وحدات لغوية كأجزاء لا يجمعها شيء يُمكن أن يُمثِّل اللبّ.

إنّ الاعتداد بالعالم الخارج عن البنية اللغوية في فهم النص هو ما يسمح بالكشف عن المقاصد، وهي في اعتقادنا المعاني التي لا ينطوي عليها النصّ في حدود نصيته فقط، وما نلاحظه هو أنّ القارئ حال تلقِّيه للنص، كبنية مُكتملة، يعمل على إنتاج دلالاته المفترضة التي لا تقع على مستوى واحد من مستويات النصّ، وذلك استنادا دائما إلى مكوِّنات سياق إنجازه حسب ما يقتضيه منه العمل التأويلي.

ويكون مثل هذا العمل مُمكنا بتفعيل القدرة على إقامة علاقات استدلالية بين ما يعرضه النصّ من معطيات وبين المعرفة بمكوّنات السياق الخارجي الذي أُنتج فيه، وهو الأمر الذي يُكسِب النصّ هويتَه، إن جاز القول. و إنّ النص من حيث بناء المقاصد ليس بكُلية لغوية مُغلقة، وإنّما يقع في عالم أوسع يُدرَج فيه وينبع منه هو عالم التواصل، وإنّ النص كوحدة تواصلية يقوم إنجازه على اعتبار المتلقي عنصرا حاضرا قبله وبعده (تشكّل النص وفق قارئه أو متلقيه). وعلى هذا نعتبر أنّ حقيقة مضمونه تحيلُنا بالضرورة

على ما وراء النص، ومن هذه الناحية يجوز الحديث عن امتداد عالم النص، وبإمكاننا ملامسة حضور ذلك العالم الخارج عن النص، خارج عنه ومشدود إليه في الوقت نفسه، إنْ على مستوى إنجازه أو على مستوى تأويله.

3- مضمون النّص: إعادة البناء

لا يُمكن حصر مفهوم النص في مجرّد بنية لغوية كبرى تفوق مستوى الجملة، وإنْ كان كلّ بناء لغويّ للنص يوازيه بناء لدلالاته فإنّ الكلمات في تركيبها في جمل تعرض قضية المعنى الكليّ للنص، والذي هو « أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجملية التي تُكوِّنه، ولا تنجم الدلالة الكليّة له إلاّ بوصفه بنية كبرى شاملة. فالنص ينتج معناه إذن بحركة جدلية أو تفاعل بين أجزائه؛ ومن ثمّ ننظر إلى ذلك الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئية »( ). وهذا ما يتمّ العمل به في مجال علم النص، هذا العلم الذي يُتّخذ فيه النص في شموليته وحدة كبرى للتحليل، وما ينتهي إليه تفسير محتواه هو المعنى الكليّ الذي قصَدَه مُنتجُه، وفي ذلك تجسيد لماهية النص كوحدة متكاملة معنى ومبنى.

لا تختلف دلالات النص وفق تشكيله اللغوي وحسب، وإنّما وفق مقاصد المتكلّم بالدرجة الأولى، ولهذا السبب يكون من الأجدى توسيع تحليل معنى النص إلى تحديد مقاصده التداولية، وذلك على اعتبار أن المقصد هو المعنى الذي يعنيه صاحب النص، وليس ما تعنيه كلماتُه. وهذا ما يحاول المتلقي (أو قارئ النص) الكشف عنه ببذل مجهود التأويل الذي يكون مراحل بحيث « يتعرّف على الكلمات التي تمَّ النطق بها، بمعنى أنّه انطلاقا من الأصوات المتلقّاة أو الحروف المقروءة يتمكَّن من تشخيص الكلمات التي احتفظ بها في الذاكرة، وهو ما يسمح له بإيجاد المعلومات

المُطابقـة للتـي كانـت بحـوزة المُتكلّـم أو المُشـابِهة لهـا، ومثـلُ عمليـة التشـخيص هـذه تسـتدعي كذلـك معرفـة بالسـياق أو الموقـف، وكـذا المعلومـات التـي يمتلكهـا كلّ منهـما؛ وبعـد ذلـك، أو بالأحـرى، مـوازاة مـع ذلـك يتـمُّ عمـل ذهنـي في التأويـل إذ يسـعى المتلقـي، باعتـماد المعنـى المُحـدّد للكلـمات، إلى إعـادة بنـاء المعنـى الشـامل الـذي أعطـاه المتكلّـم لملفوظـه »( ).

إنّ المعنـى لا يتضمّنـه النـص بشـكل مُحايِـث، وإنّمـا يمتـدّ إنتاجُـه إلى خـارج النـص، وذلـك مـن خـلال ارتباطـه بعنصر وارد فيـه (في النـص) بقـوّة، لكـن وجـوده المـادي ينتمـي إلى عالَـم غـير نـصيّ، ويتعلّـق الأمـر بالمتلقـي (أو القـارئ) الـذي يقـع عـلى عاتقـه العمـل التأويـلي.

يكـون اعتبـار المتلقـي في الإنجـاز النـصيّ معنـى ومبنـى، إذ يتـمُّ تكييفـه حسـب الذيـن نتوجّـه إليهـم بالـكلام، وهـم يتفاوتـون منزلـة وقـدرة عـلى اسـتيعاب تراكيـب النـص ودلالاتـه. وإنّ اسـتدعاء هـذا الطـرف الخـارج عـن النـص، أي المتلقـي في تحديـد مضمونـه وبُعـدِه التأثـيري هـو ممّـا يدفعنـا إلى تبنّـي فكـرة امتـداد عـالم النـص إلى خارجه.

يمـرّ النـص بمرحلـة إعـادة بنـاء معانيـه يتولاّهـا المتلقـي، كـما سـبق الذكـر، وينقلـه بذلـك مـن بنائـه الأوَّليّ (المعـاني المباشرة للنـص) إلى مجـال تحديـد أبعـاده الدلاليـة العميقـة (مقاصـد صاحـب النـص)، ويقتـضي منـه ذلـك نشـاطا ضروريـا هـو النشـاط الاسـتدلالي، « ولمّـا كانـت عمليـات الاسـتدلال في مراحـل تلقـي النـص ذات أهميـة، فـإنّ النـص لا يُعـدّ تامًّـا إلاّ حـين يـرى فهـم النـص ودمجـه في نمـوذج التوقـع الـكليّ لـدى السـامع عـلى أنـه مُـرض، وحـين يتوصـل بذلـك إلى عتبـة الختـام الفرديـة »( )، لتضـاف إليـه بذلـك بصمـة المتلقـي- المـؤوّل.

ونتحـدّث عـن إمكانيـة ذلـك نظـرا لمرونـة النـص التـي تمنحهـا لـه طبيعـة البنـاء اللغـوي القابـل للتحـوّل، ومـا يحـدث أثنـاء التأويـل هـو انتقـال لغـة النـص وبُنَـاه إلى أنسـاق أخـرى تخضـع لطـرق اسـتيعاب

المتلقي لمعانيه، إذ ثمة طرق مختلفة للتعبير عن المعنى نفسه، إلى جانب الترادف القائم على المستوى المفرداتي والجملي، وعلى ذلك نرى عدم جدوى إخضاع النص الكلامي لقواعد تحليل صارمة. وتُلقى على عاتق المتلقّي - المؤوِّل مسؤولية إعادة بناء معاني النّص بإخضاعها لعمليات معقّدة تقوم على توقّعاته وافتراضاته وكفاءته الاستدلالية، ويصبح تبعًا لذلك طرفا فاعلاً في بناء المقاصد، لذا يكون من السائغ إدراجه في عالم النص.

إن كانت عملية التلقي تنطلق من لغة النص فإنّ الوصول إلى معانيه يمرّ عبر لغة أخرى، لغة المتلقي (أو القارئ) الذي يَعمَد إلى تحويل بُنى النصّ وتمرير محتواه عبر نظام استيعابه للأفكار والوقائع، وذلك بإعمال الإدراكية وخبراته الاجتماعية التي من شأنها خلق توقعات أخرى وتصوّر مغاير لمضمون النص حيث « إنّ النجاح المحتَمَل لفعل التواصل يبقى مُعلّقا على عملية الاستدلال التي تسمح للمرسل إليه بتحديد (تشخيص) المحتويات التي نرغب في إيصالها إليه »( )، ونجد الوضع نفسه لدى صاحب النصّ حيث إنّ « المتكلّم الذي يُنتج نصًّا، لا يُعيد بذلك إنتاج «نص» جاهز (منته) بشكل ما، مختزن في الذاكرة، بل إنّه ينجز نشاطا بنائيا خلاّقا، وضعت لتحقيقه وضبطه معرفة مكتسبة اجتماعية وخبرات اجتماعية »( ).

ونخلص بعد هذا إلى أنّ الوصول إلى ما يقوله صاحب النص يستدعي انتقالا إلى ما وراء النصّ، من خلال التأويل كعملية متزامنة في الكثير من الحالات مع تلقيه (قراءته)، وحينها يُسجّل المتلقي اندماجَه في عالم النص كفاعل آخر يُساهم في إنتاج معانيه وتحديد مقاصده، ويصير على هذا النحو نقطة امتداده. وتبعا لذلك، لا يُمكن حصر مفهوم النص في مجرّد قول يتلقاه القارئ، على الرغم من «

أنّ المؤوِّل يُعيد بناء معنى ملفوظ ما باعتماد علامات موجودة فيه، وقد لا تتطابق مع تصوّرات صاحب الملفوظ »( )، وهو ما ينمُّ عن درجة معيّنة من التفاوت بين المعنى المقصود والمعنى الذي يؤوَّل به.

وتتراءى لنا إمكانية تحديد مقاصد النص في عنصرين متداخلين هُما: منطق النص ذاته وتوقعات قارئه. يتعلّق الأوّل بالحدّ المعقول من المعاني التي يُحتمل أن يخرج إليها، ويكون من غير المُمكِن أن يُعتدّ بما قد يتخيّله القارئ من أفكار تبتعد أيَّما ابتعاد عن جوهر النص؛ ويتعلّق الثاني بضبط توقعاته، ونعتقد أنّ شرط الإبلاغية هو العامل الذي يتحكّم بدرجة كبيرة في ذلك، إذ هو الذي يؤثر على المتلقي في موقفه من النصّ، ويتصل « بمدى توقع عناصر النص المُقدَّمة أو عدم توقعها أو معرفتها/غموضها. ففي الواقع إنّ كلّ نص هو إخباري على نحو ما، إذ إنّه ينقل على الأقل معلومة صغرى. غير أنّ مقدار الإبلاغية هو ما يوجّه اهتمام السامع: فإبلاغية ضئيلة للغاية (أشكال الابتذال والبديهيات لمجموعة محدّدة من السامعين) تنتج مللا؛ ويُمكن أيضا أن تؤدي إلى رفض نص ما/؛ أمّا الدرجة العالية للغاية من الإبلاغية (لمجموعة معينة من السامعين) فإنّها تشقّ على الشريك ويمكن أن تدفعه إلى التحوّل عن ذلك النصّ. ولذلك يشكل القدر المناسب من الإبلاغية في النص ما – التابع للمقصد والتوقع والموقف – مكوّنا نصّيًا جوهريّا »( ).

ويُستشف من هذا التوضيح حدوث تفاعل افتراضي بين مُنتج النص ومفسّره، يتجسّد أثناءه صدى النص، وهو حدث ناتج عن عمل تأويلي يتحقّق مع وضوح مقاصد النص والهدف العملي منه، ويَبرُز بموجب ذلك جزء هام من حقيقة النص.

المراجع:

الحميري(عبد الواسع)، الخطاب والنص «المفهوم- العلاقة – السلطة»، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.

بن ظافر الشهري(عبد الهادي)، إستراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية -، دار الكتاب الجديدة المتحدّة، بنغازي ليبيا، 2004.

حسن بحيري(سعيد)، علم لغة النص – المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، 1997.

عبد الرحمن(طه)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 2000.

هانيه مان(ڤولفجانج) و فيهڤجر(ديتر)، مدخل إلى علم لغة النصّ، تر: أ.د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، مصر، 2004.

ADAM(Jean-Michel), Linguistique textuelle, des genres de discours aux textes, Nathan/HER, Paris, 1999.

AUSTIN (John. L), Quand dire, c'est faire, tr : Gilles LANE, Éditions du Seuil, Paris, 1970.

BAYLON(Christian) et MIGNOT(Xavier), Sémantique du langage, Nathan, Paris, 1995.

CHARAUDEAU(Patrick) et MAINGUENEAU(Dominique), Dictionnaire d'analyse du discours, Éditions du Seuil, Paris, 2002.

DALACHE(Djillali), Introduction à la pragmatique linguistique, OPU, Alger, 1993.

JODELET(Denise), Représentations sociales: Un domaine en expansion, in Les représentations sociales (sous la dir .) Denise JODELET, PUF, Paris, 1998.

MAINGUENEAU(Dominique), Analyser les textes de communication, Dunod, Paris, 1998.

SARFATI (Georges – Elia), Précis de pragmatique, Nathan/ VUEF, 2002.

SEARLE(John. R), L'intentionnalité, tr : Claude PICHELIN, Éditions de Minuit, Paris, 1985.

Sens et expression, Éditions de Minuit, Paris, 1982.